النزعات الاقتصادية

فى حياة لسان الدين بن الخطيب

بقلم احمد مختار العبادى

لن أتكلم الآن عن ابن الخطيب (٧١٣ـ٧٧٦هـ = ١٣١٣ — ١٣٧٤م) وزير بنى الأحمر ، السياسى الداهية الذى لم يقتصر نشاطه السياسى على مملكة غرناطة فحسب ، بل امتد مؤثرا فى السياسة القشتالية والأراغونية والمغربية على السواء . ولن أتكلم كذلك عن ابن الخطيب العالم الأديب المؤرخ الذى يرجع إليه الفضل الأول فى جميع مانعرفه عن حضارة الغرب الاسلامى فى تلك الفترة ولا سيما مملكة غرناطة ، لكن أريد أن أتكلم عن لسان الدين ابن الخطيب الرجل المادى الذى لم تشغله مشاغله العلمية والسياسية عن السعى وراء المال والتفكير فيه والحصول منه على قدر وفير .

لقد حاول ابن الخطيب فى معظم كتاباته أن يحيط نفسه بهالة من الزهد والتصوف مثل قوله : "... وما أنا إلا عابر سبيل قد فررت من الدنيا كما يُفِرُّ من الأسد . وحاولت المقاطعة حتى بين روحى والجسد ، وغسل الله قلبى ولله الحمد من الطمع والحسد ... أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فيما بأيدى الخلق فمعروف ، وأما الميل الغبيط فعلى الصدقة مصروف ... "(١)

للأسف الشديد إن هذا الكلام لايتفق إلى حد كبير مع أعمال ابن الخطيب وأقوال معاصريه عنه . ولتفسير هذا الكلام ينبغى أن نشير أولا إلى العقلية الاقتصادية التى امتاز بها هذا الرجل الداهية إلى جانب مواهبه الأخرى . فنعلم مثلا أن السلطان الغرناطى أبا الحجاج يوسف الأول اعتمد على ابن الخطيب فى تنفيذ بعض المشاريع الاقتصادية للحصول على المال . وفى ذلك يقول

(١) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، جـ ٧ ص ٧٧ ٤ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد)

ابن خلدون : " ... ثم داخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالا ... "(١) وتظهر كذلك مواهب ابن الخطيب الاقتصادية وبعد نظره وذكاؤه ، في وصيته لأولاده حينما يقول : " ... ومن وزق منكم مالا بهذا الوطن المعلق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه إن تغلب العدو في الافتضاح والافتقار ومعوقا على عن الانتقال أمام النوب انثقال ... "(٢)

وهكذا نجد أن ابن الخطيب كان يؤمن – وذلك قبل سقوط غرناطة بما يزيد على قرن من الزمان – بأن بقاء المسلمين في الأندلس محدود ، وأن عليهم أن يحولوا ثرواتهم إلى " ماخف حملة وغلا ثمنه " ليسهل عليهم نقله عندما تأزف الساعة الحاسمة . ويبدو أنه على أساس هذه القاعدة الاقتصادية الحديثة ، أخذ ابن الخطيب يعمل على تحويل أمواله إلى بعض البلاد الاسلامية مثل مصر والمغرب . ففي نص وقفيته لكتاب " الاحاطة في تاريخ غرناطة " على أهل العلم بمصر ، يسترعي انتباهنا أنه كان لابن الخطيب وكيل بمصر وهو الرحالة الغرناطي ابو عمر بن عبد الله الخاج الأندلسي ، فوض اليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها ، وشئونه اجمعها والنظر في أحواله على اختلافها وتباين اجناسها تفويضا تاما على العموم والاطلاق والشمول والاستغراق لم يستثن شيئا مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ... "(٣)

من هذا النص نستنتج أنه كان لابن الخطيب أموال بمصر وإن كنا لانعرف إن كانت هذه الأموال ناتجة عن شئون علمية أو تجارية أو شيء آخر .

على أن المكان الطبيعي الذي اتجهت اليه انظار ابن الخطيب للالتجاء إليه عند الحاجة ، هو في الواقع بلاد المغرب الأقصى . لقد زار وزير بني الأحمر مدينة فاس كسفير لسلطان غرناطه عامي ٧٤٩ ، ٧٥٥ ، ثم التجأ اليها مرة

(١) المقري : نفح الطيب ج ٧ ص٢٩
(٢) المقري : نفح الطيب ج ١٠ ص ١٥٠ ، أزهار الرياض ج ١ ص٢٥٢
(٣) المقري : نفح الطيب ج ٩ ص ٣١٦

ثالثة عندما نفى مع سلطانه المخلوع محمد الخامس الغنى بالله عام ٧٦٠ هـ . وفى هذه المدة الأخيرة ، طاف ابن الخطيب بأنحاء المغرب حيث كان موضع حفاوة الأهلين ورعايتهم فى كل مكان حل فيه ؛ ثم استقر أخيرا فى مدينة (١) سلا Sale مرابطا بجوار اضرحة ملوك بنى مرين سائلا لهم من المولى عز وجل الرحمة والغفران . وقد عاد عليه هذا العمل بخير جسيم اذ تفضل سلطان فاس "فأمر بأن يصرف له من مجبى مدينة سلا مرتب شهرى له ولولده مبلغ خمسمائة دينار من الفضة العشرية (٢) ، وأن يعفى من كل مغرم أو ضريبة ، وأن يرفع الاعتراض فيما يجلب له من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيد خدامه من عنب وقطن وفاكهة وخضر ... الخ " (٣)

ويبدو أن ابن الخطيب فى هذه الفترة ، بدأ يعد العدة للاستقرار نهائيا بالمغرب . فأخذ فى شراء الأراضى والمساكن . وبين أيدينا الآن خطابان فى هذا الصدد عثرنا عليهما فى كتابه : "نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب" الأول منهما موجه الى قاضى تامسنا الرحالة الطنجى المعروف ابن بطوطه (٤) يخبره فيه بشراء أرض بجواره ؛ والثانى الى الشريف أبى عبد الله ابن نفيس بخصوص شراء مسكن منه (٥) . وقد آثرنا نشر الخطاب الأول فى آخر هذا الكلام أما الثانى فقد نقله المقرى فى كتابه نفح الطيب (٦) .

(١) تقع مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلنطى فى أقصى المغرب ويفصلها عن مدينة رباط نهر الرقراق (بورجراج) . وفى ضواحى مدينة سلا توجد قرية شالة Chella حيث الجبانة الملكية لبنى مرين . وهناك فى شالة سلا رابط ابن الخطيب .

أنظر (Henri Basset et Lévi Provençal : Chella, une nécropole mérenide p. 157)

(٢) الدينار العشرى يساوى عشرة دراهم . راجع (Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, II, p. 131)

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ١١٧–١١٨

(٤) اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ، وكنيته أبو عبد الله ولقبه شمس الدين ويعرف بابن بطوطه .

(٥) لوحة ٤٤ط ، ٤٥ و

(٦) راجع الجزء الثامن ص ١٥١

ولما عاد السلطان محمد الخامس من منفاه الى عرشه مرة أخرى عام ٧٦٣هـ، اضطر ابن الخطيب بناء على طلب سلطانه أن يعود اليها هو الآخر للقيام بأعباء الوزارة ولو لفترة قصيرة من الزمن، وفى ذلك يقول "... وأسرعت الى قصره (أى الى محمد الخامس) بعد أن قررت عزمى على تعجيل الأوبة، وعملى على اسراع العودة، وتركى الأهل والولد تحت جناح الحرمة والجوار المرينى" (١).

ولكن يبدو أن تمسك سلطان غرناطة بوزيره نظرا للظروف التى مرت بها مملكة غرناطة أثناء حروب قشتاله وأراغون، قد حال دون عودة ابن الخطيب الى مراكش بالسرعة التى كان يتوقعها. على أن المهم هنا هو أن ابن الخطيب ظل على مبدئه الذى رسمه لنفسه تجاه تلك البلاد من حيث هى ملجأه الأخير الذى به أمنه وأراضيه وأمواله.

ويبدو لنا أن حماية تلك المصالح الشخصية قد أثرت فى سياسته كوزير مستبد، فجعلته يرسم لغرناطة طوال سنى حكمه سياسة خارجية ثابتة تجاه المغرب قوامها الارتباط بعجلة فاس ومحاولة ارضاء سلاطين بنى مرين فى كل مايطلبونه من مملكة غرناطة. وفى ذلك يقول ابن خلدون: "... وكانت عيناه ممتدة الى المغرب وسكناه، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه" (٢).

ومن أمثلة هذه السياسة التقربية من ملوك فاس، نذكر موقف ابن الخطيب من الأمير المرينى عبد الرحمن بن أبى يغفلوسن الذى عينه محمد الخامس شيخا لجنود الغزاة المغاربة بغرناطة عام ٧٦٩ هـ. فعلى الرغم من شهامة هذا القائد وبسالته الحربية التى أشادت بها المصادر المسيحية فى الحملة التى شنها محمد الخامس على قرطبة عام ٧٧٠ هـ(٣)، نجد ابن الخطيب يتجاهله تماما فى كتاباته

(١) ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص ٢٦١

(٢) المقرى: أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣٤

(٣) أنظر P. Lopez de Ayala: Crónicas de los Reyes de Castilla, I. p. 526 (Madrid 1779)

عن هذه الحملة ، بل ويحمل سلطان غرناطه على القبض عليه فى نفس السنة بحجة أنه يتآمر سرا ضد سلطان فاس ، وإن كان الغرض الأساسى على حد قول ابن خلدون هو اكتساب رضاء السلطان عبد العزيز الذى كان يرى فى الأمير عبد الرحمن منافسا يهدده [1] . وهناك أمثلة أخرى مشابهة مثل مسعود بن ماساى ، وزير السلطان عبد العزيز الذى فر الى غرناطه والذى قبض عليه ابن الخطيب لهذا الغرض أيضا ، كذلك نذكر سليمان بن داود الذى على الرغم من أن سلطان غرناطه بايعه على مشيخة الغزاة بالأندلس فإن ابن الخطيب عمل على وقف هذا التعيين محتجا بأن تلك الرياسة " إنما هى لأعياص المُلْك من بنى عبد الحق لأنهم يعسوب زناته " [2] .

وبطبيعة الحال كانت النتيجة المباشرة لسياسة التزلف التى سلكتها غرناطة تجاه سلاطين فاس ، هى أن يزداد نفوذ ابن الخطيب فى البلاط المرينى ، فيحدثنا ابن خلدون ان سلطان فاس كثيرا ما أطلق سراح بعض المسجونين من جراء تدخل ابن الخطيب أو وساطته [3] . هذا فضلا عن أن جميع المعاهدات التى كان يعقدها ابن الخطيب مع قشتاله أو أراغون كانت تعقد باسم ملكى غرناطه وفاس . وهذا دليل على أن السياسة الخارجية لكلا البلدين كانت موحده . ثم جاءت المحنة التى كان يتوقعها ابن الخطيب حينما كثرت السعايات ضده ، وتبدد الجو بينه وبين ابن الأحمر " فنزع عنه . كما يقول ابن خلدون — إلى عبد العزيز سلطان المغرب لما قدّم من الوسائل ومهد من السوابق ، فقبله السلطان وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب [4] . ويبدو أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل أمواله معه عملا بنصيحته لأولاده ، وفى هذا يقول له القاضى المالقى أبو الحسن الباهى الجذامى : "... فهمزتم ولمزتم وجمعتم من المال ماجمعتم ... ثم هربتم بأثقالكم .. " [5] .

(١) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٧ ص ٢٣١-٢٣٢ ، ص ٢٧٨-٢٧٩
(٢) المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٣٢٠
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٣٤
(٤) المقرى : ازهار الرياض جـ ١ ص ٢٢٥
(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٥٦

وعلى الرغم من أن قائل هذه العبارة هو أحد الذين تنكروا لابن الخطيب ، الا أنها تبين على أى حال فكرة الناس عنه .

وقد حاول ابن الخطيب أن يبرر هجرته للمغرب بأنها لغرض الانقطاع عن الناس والتفرغ للعبادة والفرار إلى الله وحده . غير أن أعماله وأقوال بعض معاصريه أمثال ابن خلدون والنباهى تنكر عليه هذا القول وترمية بأن هجرته لم تكن لهذا الهدف الروحى الذى كان أجدر به أن ينشده فى الحرمين الشريفين أو فى غرناطة نفسها حيث الرباط والجهاد ، وانما كانت لغرض مصلحى بحت وهو " الاستكثار من شراء الضياع والتأنق فى بناء المساكن واغتراس الجنان "(١) .

على أن هروب ابن الخطيب إلى المغرب لم يوفر له الراحة التى ينشدها ، إذ أستمر أعداؤه يحيكون الدسائس ضده ، وأخذت سفارات ابن الأحمر ترد تباعا إلى البلاط المرينى مطالبة بتسليم ابن الخطيب رامية إياه بالكفر والإلحاد لعبارات وردت له فى كتاب " محبة الله " الذى ألفه فى غرناطة منذ عدة سنين . وقد كان رد السلطان عبد العزيز على هذا الاتهام منطقيا وجميلا إذ سألهم : ولماذا لم تعاقبوه اذن حينما كان مقيما عندكم ؟

ويجدر بنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن المغرب فى عهد ذلك السلطان نهض نهضة سياسية عظيمة ، وصار قلبا للعالم الاسلامى الغربى . ففى عهده زالت الحروب والفتن الداخلية ، وضم المغرب الأوسط أو بمعنى أصح تلمسان إلى ملكه ، وبهذا صار المغرب وحدة وقوة يخشى خطرها .

على أن موضع الأهمية هنا هو أن ابن الخطيب الذى كان يلمس قوة المغرب فى عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، رأى بعد أن استحكم العداء بينه وبين ملك غرناطة ، أن يسير فى سياسته التقليدية المغربية إلى أقصى حدودها خطورة ، الا وهى : " تحريض سلطان فاس على الاستيلاء

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٢١ ، ص ٤٩-٥٩

على غرناطة "(١) ، ليصل بذلك إلى هدفه الرئيسي وهو القضاء على أعدائه هناك ، وتأمين حياته ومصالحه بالمغرب ؛ ومن يدري لعله كان يفكر أيضا في الرجوع الى الوزارة مرة أخرى ! ويبدو أن هذه السياسة صادفت هوى في نفس السلطان عبد العزيز – لا سيما وقد وحد المغرب – فوعد بتنفيذها ؛ وعلم بهذا كله سلطان غرناطه فثارت مخاوفه ، وأسرع في ارسال التحف والهدايا الى بلاط فاس طمعاً في كسب رضاء هذا السلطان وابعاد شره .

ولكن الظروف سرعان ما تغير الأحوال ، اذ يموت عبد العزيز ، وموته تدب الفوضى والحروب الأهلية بالمغرب ، ويستولى بنو عبد الواد على المغرب الأوسط مرة أخرى ، فيفقد المغرب وحدته وقوته . وهنا يجد سلطان غرناطه الفرصة سانحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وابعاد الخطر المريني عن بلاده . فنجده يستولى على جبل طارق وسبته ليسيطر على المضيق . كذلك يعمل على تأييد استقلال بنى عبد الواد بتلمسان (أعداء بنى مرين) . ثم يتدخل في شئون فاس نفسها فيولى ويعزل من يراه من سلاطين بنى مرين.

وكان طبيعياً أن تكون نتيجة هذا التدخل هي القبض على ابن الخطيب حيث انتهى الأمر بقتله وحرقة بعد امتحانه وتعذيبه سنة ٧٧٦ هـ ثم التحكم في ضياعه وهدمها والعياث فيها (٢).

من كل ما تقدم نرى أنه كان لابن الخطيب عقلية اقتصادية ونزعات مادية أثرت في تصرفاته كإنسان وفي سياسته كوزير . أتخذ من المغرب الأقصى حقلا خصباً لتنفيذ سياسته وأطماعه التي لم تعد عليه الا بالموت وعلى المغرب بالضرر .

---

(١) يقول ابن خلدون في هذا الصدد : " ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب . وفي مكان آخر يقول ابن خلدون : وقد كان الاتفاق وقع على نكبة ابن الخطيب لما نمى إليه (أي ابن الأحمر) عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس .

راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٤٨ ، ٣٤١) أنظر كذلك (المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٠ ، نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٨)

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٥

وفيما يلي نص الخطاب المشار اليه آنفاً والذى أرسله ابن الخطيب أيام اقامته بسلا الى الرحالة ابن بطوطة يخبره فيه بشراء أرض بجواره ، وذلك حسبما ورد فى كتاب نفاضة الجراب[1] .

وتحسن الاشارة هنا الى أن ابن بطوطة زار غرناطة فى منتصف القرن الثانى الهجرى حيث قابل بعض أدباء غرناطه ومنهم الوزير ابن الخطيب الذى أفرد له ترجمة فى احاطته[2] .

نص الخطاب

يقول ابن الخطيب :

وخاطبت القاضى ابن بطوطة بتامسنا وقد عزمت على إثارة الأرض بجواره :

لتعلم سيادة القاضى شمس الدين معلم المواقف الحسية والميادين ، (أبقاها الله تحاكى الشمس فى الجولة ، وظهور الصولة . والحكم على الدولة ، وإصلاح حال العولة) ، أن موجب حقها ، وشائم برقها ، والعائد بجمعها من فرقها . لما انتبذ وانقطع ، واقتطع من جانب العزلة والتخلى ما اقتطع . وقد لاح نور الرضى بقضاء الله وسطع ، آمل أن يكون مخدومه الراحة . حتى تندمل الجراحة ، وان أعوز المعاش اجتديت الفلاحة ، وتخيرت فى البقع ، بقعة يؤنس فيها جوار كريم ، ويؤمن حيف غرم أولى غريم . فلم يقع الاختيار الأعلى البقعة التى لها الفضل بسكنى شمس الدين بين جزراتها[3] ،

(١) نوحة ٤٤ - ٤٥

(٢) حول تلخيص هذه الرحلة . راجع (Lévi Provençal : Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350), apud. Mélanges William Marçais, Paris 1950, p p. 218 ss.)

(٣) أى مرتفعاتها .

ووقوف ركائب الاستفادة بين توضحها ومقراتها [1]، فالتزمت وارتبطت واخترت واغتبطت ووجهت ثقتي لشراء ما يعين على الدهر ويستعد للفلاحة والبذر خوفاً أن يخرج يومه، فيرتفع سَوْمه، ويحاول دومه. فيضن به قومه، وعندي أن القاضي اذا تحقق أن جواره هو المطلوب الأول والفضل الذي عليه المعوّل، يتعمد هذا الغرض سَرْوَه [2] الذي لا يُتأوّل، فتقع مشاركته بكل وجه من وجوه الإعانة بمقتضى الفضل والديانة حتى يحصل ببركته ثمرة الفلاحة حسناً، وثمرة الفلاح معنى، وتعتضد للزيارة والحسنى، ويتأسس بهذه اللبنة من قُربة المبنى، ويدعو المُعشر في جواره الى العشرة والسكنى، والتمتع بفضله الأسنى، ومن نَبَّه مثله الى فضل، فقد نبه كفيلا أو جمع الى بيت مثله أثار مجداً خفياً وقرىً خفيلا، وما يصدر عن محله من وفق الظن به فقابل من الثناء بأجمل صورة ومن الحمد بأعز سورد، ... والسلام.

(١) كناية عن الأمكنة المذكورة في البيت الثاني من معلقة امرئ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها (من قصيدة تفاقدك)

(٢) السرو: الفضل والسخاء.

تصدير

١ — هل لا زال علم الاجتماع وثيق الصلة بالفلسفة ؟ هل استطاع علم الاجتماع أن يحدد موقفه فى دقة من التاريخ وفلسفة التاريخ ؟ هل تبين علماء الاجتماع اليوم مركز علم الاجتماع بين العلوم الانسانية ؟ وهل أصبحت « علمية » علم الاجتماع أمراً مسلما به ؟ وهل لو صحت علمية علم الاجتماع أيعنى ذلك أنه تخلص من مشاكل نشأته الأولى ؟ أفلم يبق على علماء الاجتماع فى السنين القادمة الا أن يجمعوا جهودهم متعاونين فى البحث عن طبيعة الحياة الاجتماعية ووصف بناء المجتمعات والاماطة عن أسباب التغير الاجتماعى والتنبؤ بسيره ؟ أحان الوقت لعلم الاجتماع أن يقدم للعاملين فى الميدان الانسانى الكشوف التى يفيدون بها البشر فى الحياة العملية ؟

كل هذه الأسئلة تصور موقف علم الاجتماع اليوم وتعطى فكرة عامة عن المشاكل التى تنشأ فى ذهن الباحثين فيه . ولو أن البعض يحاول أن يغض الطرف عنها مكتفياً بالتسليم بعملية « علم الاجتماع » وأن عماده الأول البحث الاجتماعى من أى طريق يوصل لغاية معينة . ولكن تمام الفهم لهذا العلم وخير طريق للسير فى موضوعاته أن يتثبت الباحث من هذه المسائل جميعاً حتى يكون على بصيرة تامة بحقيقته وأغراضه .

والثابت حتى الآن أن الخلاف لا يزال قائماً بين مجموعات من علماء الاجتماع اصطلح على تسمية جماعاتهم بمدارس علم الاجتماع . كل مدرسة تتخذ خطة تخالف الأخرى سواء فى نظرتها لموضوع علم الاجتماع أو فى تفضيلها للمناهج التى تتبع فى دراسة مسائله . ولست هنا أستطيب مناقشة ما أثرت من أسئلة ولكنى أشير الى أن أغلب الخلاف القائم الآن خلاف يتخذ صفة منهجية ، أو بمعنى آخر خلاف يتصل بطريقة البحث وبأصول التفسير . ويمكن تلخيص الاتجاهات المختلفة لهذه المدارس فى ثلاث :

الأول : المدرسة التى تفسر الحياة الاجتماعية من جانب واحد بغض النظر عن نوعية هذا الجانب مثل المدرسة الاجتماعية الفرنسية والمدرسة النفسية وغيرها .

الثانى : المدرسة الوضعية أو السلوكية التى تغالى فى تطبيق المناهج الرياضية والطبيعية المستخدمة فى العلوم الطبيعية والرياضية على موضوعات علم الاجتماع .

الثالث : المدرسة التى تنظر الى الحقيقة الاجتماعية نظرتها الى كل معقد متكامل وتحاول الوصول الى هذه الحقيقة من مختلف الزوايا . وأغلب الظن أن الاتجاه الأخير الذى تحاوله هذه المدرسة هو الاتجاه الذى يتفق مع أصول العلم ويستقيم مع مناهج البحث الحديثة .

٢ — ويقول كارل بيرسون Karl Pearson أن المنهج العلمى واحد فى جميع العلوم . ووحدة العلوم فى مناهجها وليست فى مادتها. وليست الحقائق هى التى تصنع العلم . ولكن الذى يقيمه هو المنهج الذى تعالج به حقائقه . والوصول الى أى معرفة علمية يتطلب نوعين من العمليات العقلية :

الأولى : عملية الملاحظة والتجريب والفحص التى تجرى على المادة وذلك لبيانها وتسجيلها فى دقة ووضوح لتكون أداة صالحة للبحث والدرس .

والثانية : عملية المقارنة والتصنيف والعد والقياس والتعميم أو التجريد وذلك للكشف عن القواعد التى على هديها نستطيع أن نقف على الحقيقة وأن نتنبأ بالمستقبل تحت شروط معينة .

وعلى ضوء ذلك وبالتطبيق على موقف علم الاجتماع خصوصاً فى بلاد ذاع البحث فيه وانتشرت مؤلفاته مثل الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن علماء الاجتماع الأول غلبت عليهم نزعة التعليم وسن القوانين دون القيام بالمجهود الذى يقضى به العلم وتفرضه مقتضيات المنهج لجمع الحقائق اللازمة . وبقى الأمر على هذا النحو ، حتى حدث رد فعل عنيف جعل بعض العلماء

يهاجمون نزعة التعميم . ويقررون أن البحث وجمع الحقائق عماد علم الاجتماع . ولكن الباحثين الجدد أساءوا فهم هذا الاتجاه الجديد وظنوا أن كل مهمة العلم تنتهي عند هذا الحد . فحاولوا أن يؤلفوا في علم الاجتماع فجاءت كتبهم أشبه بأسفار مملوءة بالوثائق دون أدنى رابطة تؤلف بينها الا عنوان الكتاب وهو « علم الاجتماع » ويسمى هذا الاتجاه الأخير في أمريكا بطريقة جمع الحقائق Fact-finding Method وقد أشار الى ذلك سوروكين Sorokin في كتابه Society, Culture & Personality الا أن هذا اللبس لم يلبث أن زال ونهض بعض العلماء ينادون بفترة من التأمل والفحص للدراسة هذه الحقائق المتجمعة تمهيداً لربط بينها ومحاولة اقامة التعميمات والفروض ، ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه في العالم اليوم سوروكين في كتابه المشار اليه آنفاً .

والحق أن البحث هو عماد أي علم ولكنه ليس كل شيء فلابد أن تسبقه وأن تعقبه مرحلة من النظر حتى يصبح كل بحث وكل دراسة خطوة من خطوات التقدم العلمي . فالعلم يبدأ من النظر وينتهي الى النظر ولذلك هو نظري في أساسه .

٣ — ولعل أهمية فلفريدو باريتو بين علماء الاجتماع ترجع في صميمها الى محاولته ، أن يقيم منهجاً للبحث في علم الاجتماع يجري على أسس رياضية ، كما هو الشأن في العلم الحديث والى عكوفه على الحقائق التاريخية الواسعة المتشعبة ، والى استخراجه للأصول والقواعد التي يمكن أن تفسر على أساسها هذه الحقائق . فباريتو اذن قد قام دفعة واحدة بالرسالة التي تنتظر من عالم جليل مثله ، وهذا ما لفتني اليه وجعلني أفرد له هذا البحث المتواضع . وقد كتب باريتو في هذا الصدد كتابه الذي ترجم الى الفرنسية بعنوان : "Traité de Sociologie Generale" والى الانجليزية بعنوان : "The mind and Society"

ولسوف نرى فيما بعد أن باريتو وقف وقفة طويلة أمام طريقة البحث في علم الاجتماع وحاول أن يسن للعلم الأصول التي رآها موصلة للباحثين من حقائق الحياة الاجتماعية ما يقيم صرح العلم بين سائر العلوم ، وحاول

في شيء من الجهد أن يوضح الصلات التي تربط علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية الأخرى ليخط له ميداناً مستقلا لا يتداخل مع ميادين العلوم الأخرى . ولعل في تفهمه لهاتين الناحيتين الى جانب تحليله الدقيق للسلوك الانساني ما رفعه الى مصاف الخالدين من علماء الاجتماع . ولقد أجاب باريتو بطريقته على كثير من الأسئلة التي سقناها في مبدأ التصدير وكان من بين مدارس علم الاجتماع المعاصرة مدرسة قائمة بذاتها .

فلفريدو باريتو

(أولا) حياته وكتبه

حيـــاته :

ولد فلفريدو باريتو فى باريس عام ١٨٤٨ عن أب ايطالى وأم فرنسية . وعند ما انتقل الى ايطاليا مع والديه وهو فى سن الحادية عشرة دخل معهد الهندسة . وظل به حتى بلغ الثانية والعشرين . وشغل فى السنوات العشر التالية وظيفة مهندس استشارى لشركة حديد ايطاليا . ثم شغل منصب المدير العام لبعض مناجم الحديد التى كان تملكها بنك فلورنسا . وقد اكتسب من خبرته فى عمله هذا اهتماماً كبيراً — ظل ملازماً له طوال حياته — بمسائل الاقتصاد والسياسة الاقتصادية العامة . ولما مات والده ورث عنه ثروة كفته أن يعيش دون حاجة الى كسب معاشه .

ومن ثم استقال من عمله الادارى المشار اليه وشرع يتفرغ لدراسة الاقتصاد . وقد حاول عبثاً أن يحصل على وظيفة أستاذ فى احدى جامعات ايطاليا . ولكن الفرصة واتته عام ١٨٩٤ بناء على توصية ليون ولراس Walras الاقتصادى السويسرى الذى اهتم باريتو بنظرياته فى الاقتصاد الرياضى — أن يخلفه على كرسى الاقتصاد السياسى وعلم الاجتماع فى جامعة لوزان بسويسرا . وقد كانت الفترة التى أعقبت تعيين باريتو أستاذاً أخصب فترة فى حياته لأنه أخرج فيها جميع كتبه المهمة .

وقد مات باريتو فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٣ مخلفاً ثروة علمية بالغة القدر .

كتبـــه :

كانت أغلب كتابات باريتو تنصب على المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأخرج فى كل ناحية منها دراسات وأبحاث مستفيضة . ونظراً

لأنه كتب أغلبها باللغة الايطالية وعدم ترجمتها ، فقد ظلت نظرياته بعيدة عن التناول فى أوربا وأمريكا حتى ترجمت بعض كتبه أخيراً وصادفت الذيوع والانتشار وأثارت المناقشات والأبحاث فى دوائر العلماء .

وأهم كتبه هى :

1. Cours d'economie Politique.
2. Les systemes Sociolistes,
3. Panuala di economia Molitica.
4. Tatti e teorie transformazione della democrazia.
5. Le mythe et la litterature immorale.
6. Trattato di Sociologia generale (4 Vols.).

وكتابه الأخير فى علم الاجتماع هو الذى يعنينا الآن من بين كتبه سالفة الذكر ، والذى منذ أن ترجم الى اللغتين الفرنسية والانجليزية أصبح موضع دراسة وعناية الكثير من العلماء الأوربيين والأمريكيين على السواء .

(ثانيا) علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية

اهتم باريتو أول الأمر بدراسة الاقتصاد على طريقة ولراس الرياضية . وكانت له فيه نظريات ومنهج لا زال قائماً قوياً حتى اليوم . ولكنه فى دراسته لمسائل الاقتصاد – وهى مسائل اجتماعية – لمس أن التفسير يتم فى حدود ضيقة وبالرجوع الى عوامل محدودة . وقد فطن الى أن الظواهر الاقتصادية لا يؤثر فيها الانسان من حيث هو انسان مادى فحسب كما يرى علم الاقتصاد . لكن تؤثر فيها ظواهر وعوامل أخرى اجتماعية وغير اجتماعية . وعلى هذا النحو قاده التفسير الاجتماعى للاقتصاد الى التحول من الميدان الاقتصادى الى الميدان الاجتماعى . وقد تم هذا التحول عند ما بدأ يدخل فى التفسير الاقتصادى عوامل أخرى لا تمت الى المجال الاقتصادى بصلة وثيقة .

من هنا نتبين أن باريتو كان يقع على المشكلة تلو المشكلة حتى تفتحت له جميع الآفاق فى العلوم الاجتماعية لتشابه الأحوال وانبثاقها عن أصل واحد وهو الحياة الاجتماعية ومقتضياتها . ولكن علم الاجتماع على الرغم من هذا

التشارك مع العلوم الاجتماعية الأخرى الا أنه يتميز بأنه علم تعميم بمعنى أنه يدرس الخصائص العامة فى مجموعة معينة من الظواهر الاجتماعية . وعلم الاجتماع بهذه المثابة يختلف عن التاريخ الذى يدرس الظواهر الاجتماعية على أنها وحدات منفصلة غير متكررة فى الزمان والمكان ، كأن يدرس الدين المسيحى على أنه ظاهرة أو وحدة منفصلة ، وكذلك الاسلام والبوذية دون أن يربط بينهم من حيث الخصائص .

وخلاصة القول أن هناك فارقين رئيسيين بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية :

(أولا) فرق من حيث الموضوع :

١ - كل علم اجتماعى يحدد له ناحية من العالم الاجتماعى يدرسها فالاقتصاد يدرس الظواهر الاقتصادية والسياسة تدرس الظواهر السياسية وهكذا . ولهذا كان الاقتصاد يهتم بدراسة تنظيم العمل ودورته وذبذبته والسياسة تدرس الدولة وهكذا . أما علم الاجتماع فانه ينظر الى المجتمع ككل مترابط أو متكامل ويعنى بالصلات الموجودة بين أجزائه وظواهره المختلفة دينا أو دولة أو عملا .

٢ — كل علم اجتماعى ينظر الى الانسان من زاويته ، فالاقتصاد ينظر اليه على أنه انسان اقتصادى ، والسياسة تنظر اليه على أنه « انسان سياسى » والدين ينظر الى الانسان — فوق كل هذا — على أنه فى النهاية انسان دينى . ولكن علم الاجتماع ينظر الى الانسان ككائن يعيش فى مجتمع له ظواهره المختلفة التى تجمع فى اطار الحياة الاجتماعية ألوان هذه الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية والدينية الخ ...

(ثانيا) فرق من حيث المنهج :

ألمحنا فيما سبق للخلاف المنهجى القائم بين علماء الاجتماع ، ويتضح هذا الخلاف أكثر بين علماء الاجتماع والعلوم الاجتماعية ، فاذا أخذنا ظاهرة محددة كالانتحار وجدنا أنها تدرس بطرق مختلفة فى العلوم الاجتماعية وتؤدى

بدورها الى نتائج جد مختلفة أيضاً ، فالاقتصاد يرجع أسبابها الى الفقر والافلاس ، وعلم النفس يرجعها الى خيبه فى حب أو مفاجأة عصبية أو تهوس والسياسة ترجع أسباب الانتحار الى الاخفاق فى الميدان السياسى والفشل فى صعود سلم المجد عن هذا الطريق ، والدين بدوره يرجع هذه الأسباب الى فساد الخلق وبعد عن طريق الخير أو الإلحاد . والجغرافيا ترجع الانتحار الى أثر المناخ ، والبيولوجيا تساهم فى الميدان فترجع أسباب الانتحار الى سوء الهضم والاختلال فى الجهاز الحيوى وما الى ذلك . وعلى الرغم من أن كل هذه التفسيرات قد لمست جانباً من حقيقة أسباب الانتحار الا أن كلا منها على حدة لا يصلح أن يتخذ سبباً كافياً يمكن الركون اليه .

فواحد من هذه العلوم لم يبين الخصائص الرئيسية للانتحار ولا نوع الأشخاص الذين يقدمون عليه ، ولا توزيع نسب الانتحار فى المجتمعات المختلفة ، ولم يعن واحد منها أيضاً ببيان فترات الزيادة والنقص فيه ... الخ المسائل المتصلة اتصالا وثيقاً بتمام دراسة المسألة . كل هذه الأمور يعنى بها علم الاجتماع لأن كل دراسة يقوم بها لابد أن تتم فى ضوء العلاقات التى تربط موضوع هذه الدراسة بالأجزاء الأخرى فى المجتمع والظواهر المتصلة به . وعلم الاجتماع لا يسلم مطلقاً بأن هناك ظاهرة — مهما كان شأنها — مستقلة يمكن أن تدرس دراسة كلية على هذا الأساس .

ويقول كارل مانهايم "Karl Mannheim" فى هذا الموضوع فى كتابه "Ideolgy and Utopia" ان عالم السياسة حين يرى أن النظام الدستورى فى بلدين متشابهين من حيث تكوين المجتمع وحضارة كل منهما ، ويختلف هذا النظام مع ذلك فى شكله العام أو فى التفاصيل ، أو حين يرى أن بلداً معينة نقلت دستور بلد آخر وغيرت فيه ولم تبقه على حاله ، فانه يفسر ذلك بالاضافة الى « الروح القومية » أو « الذات الاجتماعية والحضارية » ، ولكن هذه الألفاظ المبهمة وان لم تكن وسيلة للتفسير الصحيح . فانها تكشف الى أى حد يصل قصور البحث وعدم تمامه فى العلوم الاجتماعية الأخرى . اذن لابد لتمام فهم ظاهرة اجتماعية معينة أن تدرس علاقتها بالظواهر الاجتماعية

الأخرى ، حيث لا يمكن فصلها ويمكن دراستها على نحو سليم بعد ذلك . ولهذا كان لابد من وجود علم يدرس هذه العلاقات ولنسمه علم الاجتماع أو أى اسم آخر . فالمهم أن مثل هذا العلم حرى بالوجود ضرورى للمجتمع الحديث .

ولا يعنى ذلك أن هناك قطيعة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى فمن طبيعة علم الاجتماع المتفقة مع منهجه أن يعتمد على نتائج هذه العلوم . ومع هذا فالاعتماد ليس من جانب علم الاجتماع فحسب ، بل أن العلوم الاجتماعية تعتمد فى طرائق التفسير وفى المناهج العامة والخاصة على ما يستحدثه علم الاجتماع فى هذا السبيل . ويظهر ذلك بوضوح فى دراسات علوم النفس والتاريخ والاقتصاد والسياسة وغيرها . ومن عهد أفلاطون وأرسطو حتى ماركس ودوركايم لا زال كل منهج اجتماعى جديد يتردد صداه فى أبحاث العلوم الاجتماعية .

وما من شك أن نظريات كارل ماركس الاجتماعية كان لها أكبر الأثر على الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية على السواء . وليست العلوم الاجتماعية وحدها التى يعتمد بعضها على البعض الآخر . فالعلوم الطبيعية والحيوية يعتمد كل منها على الآخر ، فالكيمياء تعتمد على الرياضة والطبيعة على الجيولوجيا والأحياء على الكيمياء والعكس .

ويمكن تلخيص رأى باريتو فى العلاقة القائمة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية فيما يلى :

تدرس العلوم الاجتماعية الظواهر الاجتماعية بصفة عامة ، ولكل واحد منها ناحية خاصة تختصها بالدراسة مغفلا النواحى الأخرى . فعلم الاقتصاد مثلا يدرس نشاط الفرد المادى فى المجتمع ، ووحدته فى الدراسة الفرد أو الجماعة المسيرة بالمصلحة المادية وحدها . ولكن واقع الأمر أن الظواهر الاجتماعية يؤثر بعضها فى البعض الآخر فدراستها من جانب واحد صواب من جهة

وخطأ من جهة أخرى ، فهي صواب من حيث بيانها لأهمية العامل الذى تدرسه وهي خطأ من حيث اهمالها أو اغفالها لأثر العوامل الأخرى فى الناحية التى تدرسها .

لكن علم الاجتماع – دون العلوم الاجتماعية الأخرى – يدرس الظواهر الاجتماعية فى تفاعلها بعضها مع بعض وفى أثر كل منها على الأخرى ، والوظائف التى تؤديها والارتباط بينها . فهو اذن يستفيد من دراسات العلوم الاجتماعية محاولا لم شعثها وتضميمها سفراً واحداً يفسر ظواهر الاجتماع التفسير الشامل الصحيح مبيناً العوامل المختلفة التى تؤثر فى النظام الاجتماعى ومبلغ أهمية كل منها .

فعلم الاجتماع اذن علم تركيبى شامل وهو بمثابة الاطار الذى يحوى بين دائرته مختلف العلوم الاجتماعية .

(ثالثا) المنهج العلمى فى علم الاجتماع

يمكننا أن نقول أن هدف العلوم جميعاً التوصل الى معرفة عالم الحس أو التجربة عن طريق عمليات التعميم والتجريد التى تجرى على الحقائق المستمدة من الحس أو التجربة ، والغرض الأعلى من هذا هو السيطرة على تجربة المستقبل كلما أمكن ذلك وأبعد من هذا امكان التنبؤ فى حالات معينة الأمر الذى يهيئ للفرد والجماعة أن تدبر من أمورها بحيث تستطيع مجابهة الواقع . وتهدف العلوم الى جعل هذه المعرفة التى تحاول الوصول اليها غاية فى ذاتها . والعلماء يوقنون أن هذا هو الطريق الذى يمكن معه تلافى جميع ضروب التحيز والتحامل الناجمة عن الأغراض العملية .

والحقيقة أن أهم ما فى عمل باريتو Pareto هو نظريته عن علم الاجتماع « كعلم منطقى تجريبى » فقد أفرد جانباً من الجزء الأول من كتابه ليبحث هذه المسألة وظل يتعرض لها حين يشرح موضوعات الكتاب الأخرى حتى النهاية . ومن الملاحظ أنه سار على طريقة تشبه طريقة أوجست كومت

A. Comte في فلسفة التاريخ ، فكما أن تاريخ التقدم من المرحلة الدينية الى المرحلة الميتافيزيقية ثم الى المرحلة الوضعية في التطور العقلي الانساني كان الاتجاه الرئيسي للتطور الاجتماعي ، فكذلك الأمر عند باريتو لأن التمييز بين العلم المنطقي التجريبي والعلم غير المنطقي وغير التجريبي يكون جزءاً غاية في الأهمية في تحليله لتاريخ المجتمع وحياته . ومهما يكن من اختلاف الرأي حول نظريات باريتو فان محاولته الصادقة أن يقيم علم اجتماع منطقي تجريبي هي التي خلدته وأعطته هذه الأهمية ... وبعد

فليس غريباً على باريتو – وهو صاحب القدم الراسخة في علم الاقتصاد – أن يحاول اقامة دعائم منهج سليم لبحث الظواهر الاجتماعية ، فالعلم في رأيه لابدّ أن يكون منطقياً تجريبياً بمعنى أن يعتمد على الملاحظة والتجريب فحسب. فكل تقويم أو تقدير أو اطلاق لا يدخل في دائرة العلم وكل فكرة لا تخضع لهذا المنهج فهي غير علمية مثل الديمقراطية والحرية والمساواة ونظرية التضامن ... الخ . هذه النظريات التي يزخر بها التفكير الاجتماعي المعاصر وكثير من آراء هربرت سبنسر وأوجست كومت عن التقدم والتطور غير علمية بل هي من نفس المنبع التي صدرت عنه كل النظريات الميثولوجية التي انتقدها بمرارة .

ويفرق باريتو بصورة واضحة بين القيمة العلمية لنظرية ما وبين قيمتها الاجتماعية أو الواقعية الى أن يقرر أن من النظريات العلمية ما يهدد العلاقات الاجتماعية بأشد الخطر ولهذا يفرق بين الحقيقة والمنفعة . فهو اذن لم يحكم على جميع النظريات غير العلمية بالفساد ، بل أشار الى أهميتها في المجتمع وكل الذي فعله أن فصل بين ما هو علم فيخضع للملاحظة والتجريب وبين ما هو غير علمي فلا يخضع لها برغم دوره البالغ في المجتمع .

ويرفض باريتو بعد ذلك كل النظريات والمناهج التي تدرس الظواهر الاجتماعية من جانب واحد والتي تحاول أن تجعل من ظاهرة معينة الأصل في كل الظواهر الأخرى . وقرر أن الظواهر الاجتماعية متساندة تساندا « وظيفياً » فكل ظاهرة تؤدي دوراً معيناً يؤثر في الدور الذي تقوم به الأخرى .

ومن مجموع هذه الوظائف والأدوار يخرج النظام المتكامل الذى يكون عليه النظام الاجتماعى . ويرى باريتو أن تعقد الظواهر الاجتماعية انما يرجع فى صميمه الى تداخل وظائفها ، وان كل ظاهرة تعتمد على الأخرى بحيث أن كل تبسيط لهذه الظواهر أو كل عرض سريع لها دون بيان لوجوه الصلات والروابط التى تربطها بكل بها ويسيء الى فهمها كل الاساءة .

ويتلخص منهج باريتو فى خمس خطوات :

١ – لا يدخل تحت البحث العلمى الا كل ما يخضع للملاحظة والتجريب .

٢ – الظواهر الاجتماعية متساندة تساندا وظيفياً يؤثر بعضها فى البعض الآخر . والتفسير العلمى لا يتم الا بالاضافة لجميع العوامل .

٣ – لا يدخل تحت البحث العلمى الأمور العرضية أو الوقتية لأن العلم لا يعنى الا بما هو دائم وحقيقى .

٤ – فى الأمور التى تلاحظها لابد أن تدرس المسائل المشتركة بين مختلف الناس وفى مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهو فى هذا المقام يشير الى علم الاجتماع المقارن الذى يمهد السبيل الى اقامة علم الاجتماع العام .

٥ – فاذا تيسر لنا كل ما سبق وجب أن نطبق المنهج الموضوعى الكمى فى الدراسة فهو خير المناهج جميعاً . وهو الذى يمكننا من اقامة معرفة يقينية قائمة على الحقيقة الواقعية لا على الوهم والخيال ، وبه أيضاً نصل الى حقيقة النظم الاجتماعية المعقدة .

وهكذا نرى أن منهج باريتو يشابه من وجوه كثيرة نظريات علماء المناهج مثل كارل بيرسون ودوهيم وبوانكاريه ، فالقانون عندهم احتمالى يتغير كلما اكتشفت حقائق جديدة وبانت وجوه شبه وصفات عامة مشتركة لم تكن معروفة من قبل . وباريتو فى عرضه لمنهجه لا يختلف كثيراً عن المنهج العلمى الحديث فلا يلتزم فى دراساته الا الحقيقة الموضوعية . ويرى جنزبرج Ginsberg أن منهج باريتو استقرائى ومقارن بمعنى أنه يبدأ من الحقائق

الواقعية التجريبية كالمعتقدات السائدة فى مختلف المجتمعات أو قواعد السلوك المتواضع عليها ليصل من ذلك كله الى بيان العناصر الدائمة والمتغيرة فى هذه الضروب المختلفة ليضع القوانين التى تحدد علاقاتها المتبادلة ، ولكن باريتو فى رأى جنزبرج لم يلتزم منهجه هذا أو لم تتح له الفرصة لتطبيقه . ويرى أن تعريفاته غامضة لا تتكشف حتى مع المقاربات المتتابعة أو مع طول الشرح والابانة .

(رابعا) العوامل المؤثرة فى الظواهر الاجتماعية

رأينا مما سبق أن باريتو يهاجم النظريات التى تفسر الظواهر الاجتماعية ، من جانب واحد ورأينا كيف وصفها بالبساطة واستطعنا أن نتبين رأيه فى أن الظواهر الاجتماعية متساندة تساندا وظيفيا وأن تفسيرها لا يتم الا بالاضافة لعوامل متعددة وفوق هذا يعتقد باريتو أن التفسير الصحيح للظواهر الاجتماعية والتثبت من طبيعة الحياة الاجتماعية لن يتم الا اذا استطعنا أن ندرس هذه العوامل دراسة كمية . ويأسف فى ثنايا أبحاثه أن مثل هذه الدراسات غير موجودة بجانب أنه لن يتمكن من التعرض لها جميعاً ، فمثل هذا الأمر فوق طاقة عالم واحد .

ويرى باريتو أن العوامل التى تؤثر فى الظواهر الاجتماعية تتلخص فيما يلى :

(أولا) عوامل خارجية .. وتنقسم قسمين :

١ ــ البيئة الجغرافية بعناصرها المختلفة من مناخ وتربة وحيوان ونبات .

٢ ــ المجتمعات المحيطة بالمجتمع محل الدراسة والأنظمة الاجتماعية السائدة فيه ثم تاريخ المجتمع نفسه .

وقد لمح بهذا الى دور الاحتكاك الحضارى فى خلق التغيرات الاجتماعية وأثره البالغ فى تعديل كثير من النظم . فالعالم اليوم لا يعيش كل جزء منه منفصل عن الآخر فقد تعددت وسائل الاتصال المادى والثقافى عن طريق

المواصلات البرية والبحرية والجوية ، وكثر تنقل الناس من بلد لآخر ، بل هجراتهم من هذا البلد الى ذلك البلد – وهكذا . وأخذت الصحافة والاذاعة والسينما والتليفزيون أخيراً يقوم كل منها بدور بالغ الأهمية فى نقل الأفكار عبر المحيطات وأصبحت تتخطى حدود الدول وتنفذ الى أعماق الأفراد والجماعات . كل هذه العوامل من شأنها أن تترك آثاراً واضحة على الظواهر الاجتماعية . والمحقق فى البحث الاجتماعى لا يمكن أن يغفل شأنها اذا أراد أن يصل الى حقيقة الحياة الاجتماعية . أما تاريخ المجتمع محل الدراسة فمن الأهمية بمكان لأن اتجاه الظواهر الاجتماعية سواء الى التغير أو التعديل عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات والاحاطة بتاريخها يعين اتجاهها الحالى ويلقى بما ستؤول اليه فى المستقبل . ولهذا فالنظرية القائمة باغفال التاريخ والاهتمام بالموجود الآن نظرية لا تنهض على أساس متين .

(ثانياً) عوامل داخلية :

تتصل بأفراد المجتمع نفسه كالجنس الذى ينتمون اليه ومعتقداتهم وأحوالهم النفسية وآمالهم ورغباتهم وما الى ذلك . وهذه العوامل ضرورية فى التفسير لأنها بمثابة الوقود الذى يحرك الآلة . وهى العوامل التى تستقبل التغيرات الخارجية فى انسيابها للداخل فطوراً تشتبك معها فى صراع قد تنتصر فيه وطوراً آخر تسلم نتيجة لتكثف موجات المد الحضارى القادم من الخارج ، وبالتالى تتجه إلى المعتقدات والتقاليد وتجرها ، اما الى تغير كامل أو الى تعديل قد يلحق بناءها كله .

ويرى باريتو أن تاريخ المجتمع هو بالنسبة لهذا المجتمع فى مجال التطور الاجتماعى عنصراً أو عاملا خارجياً يؤثر فى النظام الحالى له شأنه فى ذلك شأن المجتمعات الأخرى . ومما لا شك فيه أن تقسيم باريتو للعوامل المؤثرة فى الظواهر الاجتماعية الى عوامل داخلية وعوامل خارجية أمر له وجاهته ، بل ان الأبحاث الاجتماعية ومقتضيات الحضارة الحديثة اثبتت أن التغير الاجتماعى الذى يتم فى منطقة معينة لا يتم ذاتياً بل يتم بالاضافة الى الداخل والخارج معاً . بل قد يذهب بعض العلماء أنه طالما كانت الأوضاع الداخلية

مستقرة وطاقة الأرض الانتاجية تكفي السكان ، فليس من المتنبأ به أن تحدث تطورات في النظام الاجتماعي ذات بال فهم الا التطورات التي تشبه تلك الأحياء . ولهذا يرون أن التطور أو التأثير في الظواهر الاجتماعية الآن يأتي من الخارج في المقام الأول .

(خامساً) المجتمع والتوازن الاجتماعي

وبعد أن أقام باريتو الدعائم ورسم الخطط توجه من فوره الى دراسة المجتمع . فلم يشأ أن يعرفه بأنه كائن عضوي أو مجرد مجموع من الأفراد أو ميكانيزم ؛ ولكن عرفه كما يفعل أصحاب الاتجاه الطبيعي في الدراسات الاجتماعية — وهم الذين يرون أن الظواهر الاجتماعية مثل الظواهر الطبيعية ينطبق عليها نفس القوانين لأنها مادية في صميمها . وهذا الاتجاه موجود منذ عهد فلاسفة اليونان ولكنه في الفكر الاجتماعي المعاصر يتمثل على الأخص في دراسات كاري Carey وفنيارسكي Winiarsky الذي عرفه « بأنه مجموع منظم من الجزئيات الانسانية » تربطهم علاقات متبادلة معقدة . والجماعة نظام اجتماعي تعمل فيه قوتان متكافئتان أحداهما تحاول هدمه ، والأخرى تحاول اعادة التوازن ، ومن فعل هاتين القوتين ينتج ما أسماه باريتو بـ « التوازن الاجتماعي » .

والحق أن علم الاجتماع عند باريتو يعتبر محاولة لتطبيق فكرة التوازن التي أدخلها ولراس Walras في دراسة الاقتصاد والتي تناولها باريتو بالدراسة ووقف عليها قسطاً كبيراً من جهوده . فمن المعروف أن هناك صراعاً دائماً بين رغباتنا التي تريد أن تشبع وبين العقبات التي تعترض سبيل اشباعها ، ولكن الصراع لا يلبث أن يتحول الى توافق أو توازن بين رغباتنا وبين الظروف الخارجية المحيطة بنا .

والمجتمع يجري على نفس النظام تحدث فيه عملية توافق تؤدي الى التوازن الاجتماعي . أما القوى التي تعمل في المجتمع مناظرة لرغبات الفرد فهي ميل الناس الى الالتجاء الى الأفعال غير المنطقية — في حين أن القوى التي تعمل

مناظرة للعقبات التي تنشأ في وجه الفرد لاشباع رغباته فهي ميل الناس الى اخفاء الطابع غير المنطقي في أفعالهم ومحاولتهم اظهاره بصورة منطقية معقولة .

والأفعال غير المنطقية — بعد هذا كله — تختلف من زمان الى زمان ومن مكان الى مكان . الا أنه بالرغم من ذلك ، فثمة عنصر أساسي فيها لايتغير بتغير الأزمنة واختلاف الأمكنة ، وهذا العنصر الثابت هو الجدير بالدراسة . وهو أهم موضوع لعلم الاجتماع عند باريتو — وهو فوق هذا وذاك العامل الأساسي الذي يؤثر في طبيعة النظام الاجتماعي .

(سادسا) العوامل المؤثرة في النظام الاجتماعي

رأينا فيما سبق أن فلفريدو باريتو يرى أن النظام الاجتماعي يتأثر بفعل عوامل خارجية وعوامل داخلية ، وأضاف الى ذلك أيضاً تاريخ المجتمع محل الدراسة باعتبار أن التاريخ يعتبر عاملا موضوعياً خارجياً يمكن دراسته في طبقة العوامل الخارجية وأبى في حينه فكرته في هذا الصدد . ولقد اعترف باريتو أن دراسة العوامل المؤثرة في نظام اجتماعي للوصول منها الى وصف دقيق للمجتمع أمر لا يستطيعه عالم واحد . ولهذا اقتصر في دراسته للمؤثرات العامة في النظام الاجتماعي على عدة عوامل ، أهمها وأبعدها أثراً تحليله الدقيق للافعال المنطقية وغير المنطقية في السلوك الانساني واكتشافه لفكرة الرواسب Residues والمشتقات Derivations وسنحاول في الصفحات التالية أن نعرض لرأيه في هذين الموضوعين ، ثم نعرج على العوامل الأخرى التي لم يوفها حقها من الدراسة .

(١) الأفعال المنطقية وغير المنطقية :

يقع علم الاجتماع في رأي باريتو في قسمين :

١ — تحليل وتصنيف المكونات الأولية الطبيعية الانسانية كما تظهر في الحياة الاجتماعية .

٢ — بيان لتفاعل هذه المكونات ومبلغ ما يطرأ عليها من تغير فى توزيعها على طبقات المجتمع المختلفة .

وقد حلل القوى الأساسية فى الحياة الاجتماعية بتقسيم الأفعال الانسانية الى قسمين :

١ — الأفعال المنطقية Logical وهى التعبير الحقيقى المباشر للطبيعة الانسانية .

٢ — الأفعال غير المنطقية Non-Logical والتى ظل يسردها فى شئ من التفصيل مبيناً سيطرتها الكبرى على الشئون الانسانية .

ولم يلق باريتو اهتماماً بأعمال علماء النفس بل حاول أن يكتشف الفروض لنفسه من خبرته الشخصية الأمر الذى نجم عنه سوء استعمال لبعض المصطلحات الفنية مثل العواطف والغرائز ، وقد أدى هذا الى عدم فهم هذا المفكر على الوجه الصحيح ، ولقد كانت النتائج التى وصل اليها غاية فى الجرأة ، ويتضح هذا من النص الآتى :

« قام الناس ولا يزالون يقومون بأعمال دون أن يفطنوا لأى سبب يقومون بها . فالدوافع الحقيقية للفعل غالباً ما تكون مختلفة عن الأغراض التى يحصلون عليها وهم شاعرون . والناس فى سعيهم للوصول لأهداف شعورية معينة كثيراً ما يحصلون على أمور لم تكن فى حسبانهم اما لأنهم لم ينتهجوا السبيل القويم أو لأنهم لم يتبصروا عواقب أعمالهم ، ولهفة الناس على المنطق والتعقل تبدو فى محاولتهم تبرير أعمالهم واعطائها صورة منطقية على الرغم من أنها صادرة عن دوافع غير شعورية غامضة » .

ومن الملاحظ أن أغلب كتاب باريتو قد أفرد لبيان العناصر غير اليقينية فى السلوك الانسانى والخرافات والأباطيل المخترعة لتصوير السلوك بصورة المنطق والعقل على الرغم من أن التحليل العلمى يثبت مما لا يدع مجالا للشك ، ان مثل هذا السلوك نتيجة للاحساس والدوافع غير الشعورية .

ويقوم تصنيف باريتو للافعال الانسانية الى منطقية (يقينية) أو غير منطقية (غير يقينية) على أساس التمييز بين الوسائل والغايات التي وجد بالبحث أنها تنطبق على جميع ضروب السلوك الانساني ، فالأفعال غير المنطقية هي الأفعال :

١ — التي لا تؤدي الى غرض ما سواء كان غرضاً ذاتياً أو موضوعياً .

٢ — التي يظن الفاعل أنها تحقق غرضاً معيناً — ولكنها في ضوء معرفة أوسع لا توصل الى شيء .

٣ — التي لا يهدف اليها الفاعل شعورياً (ارادياً) على الرغم من وجود هدف موضوعي محدد .

٤ — التي توصل الى غاية لم يكن يهدف لها الفاعل ، بغض النظر عما اذا كانت هذه الغاية الموضوعية محل رضائه أو نفوره لو كان قد تبصرها .

وهكذا نرى أن الأفعال تعتبر غير منطقية اذا لم تكن لدى الفاعل معرفة واضحة صريحة عن الأغراض التي يتوخاها من الفعل . أو اذا كانت لديه هذه المعرفة فأنه لا يميز الوسائل الناجزة للوصول الى تلك الأغراض والتي ينجم عنها ، اما أن يخفق في الوصول الى الغرض أو يحصل على نتائج لم تكن في حسبانه .

وفي كلمات تعتبر الأفعال غير منطقية اذا لم تكن موجهة الى غرض محدود أو اذا لم تسر في الطريق الصحيح الموصل الى هذا الغرض .

وبالعكس تعتبر الأفعال منطقية اذا كانت النتائج التي يتنبأ بها الفاعل مطابقة للنتائج التي يمكن التنبأ بها على ضوء معرفة أوسع .

وقد أغفل باريتو أو أهمل تصنيف غايات السلوك الانساني وارتباطها بالدوافع الانسانية ، تلك التي قال عنها أنها تشمل العواطف والأذواق والاتجاهات والميول والغرائز والرواسب والمصالح Interests أما الرواسب Residues فقد قال أنها لا تشمل الشهوات أو الغرائز البسيطة أو المصالح

ولكنها تتصل بها بسبب . فيبدو أن يكون هناك عمل لوجود راسب فى السلوك الانسانى كلما عبر عن الشهوات أو الغرائز تعبيراً غير مباشر أو بصورة خفية فاجتماع الجنسين غريزة وليس راسباً ، ولكن الوعظ فى الأمور الجنسية والدعوة الى الفضيلة راسب .

فاذا كان هذا التفسير صحيحاً فان الراسب ليس غريزة ولكنه وسيلة تختفى وراءها هذه الغريزة أو الدافع الأصلى . ومن ثم كان الراسب غير منطقى لأنه يعمل على اخفاء عمل الدافع الأصلى ويظهره بصورة غير صورته الحقيقية

وعلى ذلك فالاشباع المباشر لغريزة ما أو النهوض لارضاء دافع معين يعتبر عملا منطقياً . ولكن باريتو يقرر فى مواضع أخرى أن العمل بمقتضى المصلحة أكثر منطقية من العمل بمقتضى الغرائز والدوافع ، لأنه يرى أن العمل بمقتضى الغرائز عملا غير اجتماعى ، أى أنه يصطدم بالأوضاع الاجتماعية .. أما المصالح فهى دوافع من طبيعة أخرى أكثر صلاحية وملاءمة للمجتمع . ومن ثم كان العمل بمقتضاها أكثر منطقية .

والمصالح "Interests" هى الدوافع التى تجعل الفرد ينهض لاكتساب أو تحصيل المنافع المادية سواء كانت نافعة حقاً أم بسيطة ، ويناظرها العمل أيضاً على كسب الاعتبار والمركز الاجتماعى ، ومع ذلك ليس مفهوماً لماذا كان الجرى وراء المنافع المادية منطقياً أكثر من اشباع الدوافع الاجتماعية الأخرى كالمعرفة مثلا ، أو لماذا كان الجرى وراء المصالح التى تعتبر أفعالا منطقية غير مشروط بغايات خاصة ؟ هل لأن تحصيلها يكشف عن أن الناس يتصرفون بحرص وفطنة عظيمتين ازاءها — بالنسبة لأوجه النشاط الأخرى — فى اختيار الوسائل الملائمة ؟

والصعوبة فى هذا الموضوع تنشأ لأن باريتو يشير غالباً الى أن النشاط الاقتصادى هو السلوك المنطقى المثالى . فمن السهل أن نتبين أن السلوك الاقتصادى هو السلوك الذى يحوى عنصراً منطقياً اذا كانت الوسائل المستخدمة مؤدية للغايات المطلوبة . ولكن الحقيقة أن السلوك الاقتصادى فى صميمه

غير منطقي لأن الناس لا تعرف الدوافع الحقيقية التي تدفعهم الى هذا النوع من النشاط . فاختيار رجل ما لمهنة معينة قد يكون عن قصد سابق . ولكن الدوافع التي اضطرته لهذا الاختيار غالباً ما تكون لاشعورية . اذ قد يؤثر في الاختيار جميع الرواسب التي عددها باريتو . وسنبينها فيما بعد . ومن جهة أخرى نجد أن البحث عن الاشباع الاقتصادي يؤدي الى نتائج لم تكن منتظرة وليست مرغوبة في الوقت نفسه ، فالناس لا يريدون الحرب ولكن سلوكهم يؤدي الى اشعالها ، وأصحاب الأعمال والعمال لا يريدون البطالة ولكن نشاطهم المرتبط بعضه بالبعض الآخر يؤدي الى ذلك . فاذا كان النجاح في اشباع الدوافع مقياس الأعمال والسلوك المنطقي ، فان النشاط الاقتصادي يجب أن يكون عملا غير منطقي الى حد كبير لأنه يفشل في ضمان الحياة المرغوبة للجماهير وفي اختصار — وبدون اختبار أو تمحيص لغايات السلوك الانساني — فانه من الصعب أن نلقي الضوء الكافي على العناصر اليقينية في السلوك ، أو على العلاقة بين النشاط الاقتصادي وغيره في الحياة الانسانية .

وفي الأجزاء الأخيرة من كتابه يرى باريتو أن الفرد يسلك سلوكاً منطقياً اذا كان يحاول أن يضمن لنفسه الحد الأعلى من المنفعة ، ويعني بذلك أن العمل النافع بالنسبة للفرد يكون متضمناً في مقارنة بين مختلف المنافع المقاسة على نموذج أو مثال ، وما دامت هناك مقارنات فيجب أن يكون هناك منطق ، وهذا ما لم يحاول باريتو عمله ، ففي الاقتصاديات يزعم أن الفرد هو خير حكم لما يفيده وله أن يفعل منطقياً ما يدنيه من هذه المنافع . ولكن اذا خرجنا من دائرة الاقتصاديات نجد أن هناك نماذج كثيرة للمنفعة القصوى بالنسبة للفرد ، ولهذا كان اختيار النموذج الذي يسعى الفرد الى تحقيقه أمراً يقوم على غير أساس ، ولذلك يكون السلوك دائماً غير منطقي . ولهذا نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نجزم عما اذا كان من صالح الفرد أن يجهد نفسه ويعذب بدنه للوصول الى الرضى أو الاشباع الخلقي ، أم كان من الأفضل أن يلتمس الثروة ويبحث عن أمور نافعة في ميادين أخرى .

هذا ومن جهة أخرى ، فان باريتو فى تناوله لمنطق السلوك يغفل نواح يعتبرها البعض أهم أجزائه ، وليس من شك أن السلوك اليقينى يقتضى معرفة بالغايات ودقة فى اختيار الوسائل الناجزة لبلوغها ؛ ولكن منطق السلوك يقضى أيضاً بأن نتبين اذا كانت القواعد التى نسير عليها أو التى نأخذ أنفسنا بها تتمشى مع هذه الغايات وأن نبحث على وجه الخصوص عن القواعد التى تسير عليها الأفراد والجماعات فى مجتمعات مختلفة حتى يمكن أن نقرر أن هذه القواعد هى العامة وهى التى اكتشف بالتجربة أنها توصل فعلا الى الغايات التى نتوخاها . ومن الواضح أن باريتو لم يشغل نفسه بهذه الأمور ، فالقاعدة العامة عنده يقررها ببساطة وهى « العاطفة » فليس هناك مقياس غيرها فى بحث المجتمعات التى يقوم توزيع الدخل فيها على أساس العدالة والمجتمعات التى لا نظام لها فى توزيع الدخل ، فالأساس عنده فى القياس ، والحكم هو العاطفة الفردية فحسب .

ويرى باريتو أن الأحكام الاخلاقية لو كانت محل بحث يقينى أو اختبار علمى لتقدمت الأخلاق تقدماً كبيراً منذ ظهرت فى صورتها الفلسفية لأول مرة على يد أرسطو . ومن العجيب فى هذا المجال أن يرى باريتو أن المسائل الاخلاقية وما دار حولها من نقاش وما يزال يدور وان كان تافهاً من الوجهة المنطقية ، الا أن له فى الحياة الاجتماعية أثر كبير ، فالمسائل الاخلاقية كانت وما تزال تهز النظام الاجتماعى منذ الأبد .

(ب) الرواسب "Residues" :

وبعد أن أفاض باريتو فى تحليل الأفعال المنطقية وغير المنطقية ، حاول بعد ذلك أن يبين فى شئ من التفصيل العناصر الأساسية التى تكمن وراء هذه الأفعال . فأرجع جميع مظاهر السلوك الانسانى والنشاط الاجتماعى بصفة عامة الى مجموعة من الدوافع سماها « رواسب Residues » وهى النزعات الانسانية المعبر عنها بطريق غير مباشر ولها خاصيتان :

١ — الدوام ، بمعنى أن كل ما هو عرضى أو استثنائى فى دوافع الانسان لا يدخل بين هذه الرواسب فى تفسير السلوك الإنسانى .

٢ — الاشتراك بين بني الانسان في مختلف الأزمنة والأمكنة ، بمعنى أنها عناصر ثابتة تمتد في تاريخ الانسانية بأسرها وتزحف دائماً الى الأجيال القادمة .

والرواسب من جهة أخرى ليست غرائز أو عواطف ولكنها مترتبة عليها وترجع دائماً اليها ، فكل تعبير مباشر للغريزة لا يؤدي الى جعلها راسباً . ولكن اذا ترتب على الغريزة استجابة غير مباشرة سواء كانت استبدالية أو حقيقية ، يمكننا القول أننا دخلنا حينئذ في دائرة الرواسب لأن الاستجابات غير المباشرة تعتبر من أهم مظاهره . فالرواسب اذن عبارة عن مجموعة من الدوافع أو النزعات الانسانية تستتبع أنواعاً من الاستجابات وضروباً من السلوك غير المباشر بمعنى أن هذا النوع من السلوك لا يعتبر التعبير المباشر لإرضاء الدافع . فالدافع الجنسي ارضاؤه المباشر هو الجماع ، ولكن مظاهره الأخرى غير المباشرة هي الزهد وتحقير الشهوة واتهام الحياة الجنسية ... وهذه المظاهر الأخيرة هي التي تكشف عن وجود الراسب ، ويسميه في هذه الحالة الراسب الجنيني .

وهذه الدوافع (الرواسب) في نظر باريتو عبارة عن مجموع من الأصول التي تفسر بناء عليها جميع مظاهر السلوك الانساني في المجتمع ، وان كان باريتو يعلم أن هذه الرواسب ليست الا أحد العوامل التي تؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية . ولكنه لسهولة البحث ولتعقد المسألة آثر أن يولي بها كثيراً من عنايته .

وهناك في رأي باريتو ست مجموعات من هذه الرواسب :

١ — رواسب الترتيب والربط (التركيب) : وهي الدوافع التي تعمل على اقامة ترتيبات وروابط عقلية وطبيعية بين أشياء كثيرة ، وذلك كترتيب الاضداد والربط بينها وربط الأشياء النادرة بالحوادث الاستثنائية ، وهكذا . ومن هذا نرى أن هذه الرواسب تمتد آفاقها فتشمل كل النشاط العقلي التركيبي والعمليات العلمية والتفكير الابداعي .

٢ – رواسب المحافظة : وهى الدوافع التى تعمل على بقاء علاقات الناس بعضهم ببعض وبقائها بالنسبة للاماكن مثل بقاء علاقة الأحياء بالموتى ثم بقاء المجردات وثباتها .

٣ – رواسب استخراج العواطف : وهى الدوافع التى تؤدى الى التعبير عن العواطف بأفعال خارجية مثل النشاط السياسى والتسامى الدينى . ويشير هنا باريتو الى أهمية الخيال فى نشوء التعبير الرمزى عن العواطف ، ولكنه مع ذلك لا يناقش الرمزية ولا يبحث عن سبب الاستعانة بالرمزيات فى مثل هذا النوع من السلوك .

٤ – الرواسب الاجتماعية : وهى الدوافع التى تدفع الناس الى تكوين المجتمعات والأحزاب أو الهيئات التى تعمل على فرض الوحدة والتشابه بين أعضاء هذه المجموعات مثل الخوف من الجديد والعطف والقسوة والزهد ورغبة الشهرة وعقدة النقص وعقدة الاستعلاء ، وهكذا . فهذه كلها مظاهر لرغبة الانسان الاجتماع بغيره وللعوامل التى تؤكد هذه الرغبة وتفرض نوعاً من التشابه والاتفاق بين الأفراد فى الميول والرغبات .

٥ – رواسب تكامل الشخصية : وهى الدوافع التى تعمل على حفظ الشخصية من التذبذب والانحلال . وهى نفسها التى تعمل على طلب المساواة وهذه عوامل من شأنها أن تزيد من الثقة والاعتزاز بالنفس .

٦ – رواسب الجنس : وهى الدوافع التى تعمل على الابقاء على العلاقات الجنسية مثل الاغراء والقلق الجنسى ، ويكشف راسب الجنس عن حقيقة مهمة وهى أن احتقار الجنس ليس وراءه الا الانشغال الكامل به . ومع ذلك لم يبين باريتو أثر العلاقات الاجتماعية على العلاقات الجنسية أو أثر هذه الجنسيات على العواطف أو بعض النظم الاجتماعية كالملكية أو الأسرة .

(ج) المشتقات Derivations :

رأينا فيما سبق أن الرواسب هى الجذور الممتدة عميقة فى الحياة الانسانية ؛ وهى وحدها المسؤولة عن كل سلوك يتم داخل المجتمع ، وهى فوق هذا نادراً

ما تتغير فمن أهم صفاتها الثبات . أما المشتقات فهي المعرضة دائماً للتغير عن طريق اعطائها أسماء أو صوراً متغيرة . ويظهر تغير المشتقات بصورة واضحة عند ما يتغير نظام الحكم ، فنجد ألواناً مختلفات من الشعارات والنظم والتوجيه السياسي يرجع أغلبها الى رواسب ثابتة . فالرواسب هي المصدر الأول لكل حدث سياسي أو اجتماعي ، أما المشتقات واختلافها البين من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان فأمر لا ينبغي أن يوجه الباحث اليه اهتماماً كبيراً ، لأنها تعتبر بمثابة تفسيرات تتخذ طابعاً ذاتيا . ومن العجيب أن نرى في خلال التاريخ الانساني شعوباً تتفق في غاياتها بل وفي دينها ، ومع ذلك يصارع بعضها البعض الآخر ويصبح التنافس بينها أمراً شائعاً . ويرجع ذلك الى اختلاف المشتقات التي تظهر في صورة آمال وأحلام تختلف من شعب الى شعب على الرغم من اتحادها في الغرض والدين .

والمشتقات أربع مجموعات هي :

١ — المشتقات الاجتماعية : وهي الأحكام الاجتماعية والقواعد السياسية التي يعتنقها الناس دون تفكير ويؤمنون بها ويرددونها في كل مناسبة بدون أن يفطنوا الى أغراضها وما تنطوي عليه من معان . والمهم أن هذه الأحكام قد تكون صحيحة الا أنها ليست صحيحة في كل وقت أو في كل موقف ، ومن الأمثلة على ذلك " صوت الشعب من صوت الله " ، " رأيان أفضل من واحد ، ورأي الثلاثة لا يخطئ " .

٢ — المشتقات " المؤكدة " : وهي الأحكام والأقوال التي تستمد من أقوال العظماء أو الأشخاص ذوي النفوذ أو الأبطال التاريخيين — فكل قول يوصف بالقدم يضفي على نفسه ثوباً من الحكمة على الرغم من عدم اتفاقه مع الأوضاع الراهنة .

٣ — المشتقات الشعورية : وهي التي تصادف هوى في النفس واتفاقاً مع مشاعر الفرد أو الجماعة أو تتمشى مع المبادئ المقررة في زمن ما . وعن طريق هذه المشتقات يستطيع البعض الدعاية لمبادئ معينة أو فرض نظام

معين عن طريق استعمال مشتقات مثل " التضامن الاجتماعي " و "حقوق الانسان " و "المصلحة العامة" و "رفعة الوطن" و « ارادة الشعب » وهكذا .

٤ المشتقات المجازية : وهي المشتقات التي يختلط فيها الجانب اللفظي بالجانب المنطقي والنفسي ، فطوراً يختلط الواقع بالتخيل وطوراً يختلط التقرير بالتشبيه والتمثيل ، وطوراً آخر يختلط هذا بذاك في غير ترتيب .

الخصائص العامة للرواسب والمشتقات :

وبعد أن أفاض فلفريدو باريتو في وصف الرواسب والمشتقات وتصنيفها عاد مرة أخرى يحاول أن يعين خصائصها على النحو التالي :

١ — لا توجد الرواسب على النحو الذي عددناه فيما سبق في جماعة واحدة ، بمعنى أنه لا يتعين أن توجد جميعها في جماعة لتكون حاصلة على كل امكانية للحياة الاجتماعية . ولكن الرواسب في الحقيقة موزعة بين الجماعات على غير نظام . والرواسب السائدة أي التي لها الغلبة هي التي تحدد شكل النظام الاجتماعي : فاذا تغيرت نسبتها تغير النظام الاجتماعي بدوره ، مثال ذلك اذا سادت في مجتمع ما الرواسب التي من شأنها المحافظة كان المجتمع ذا طابع يتسم بالجمود ولا تكون هناك فرص كثيرة للتغيرات الاجتماعية ، واذا كانت الرواسب التي تتصل بالعواطف هي السائدة ، غلبت النزعات الخيالية واتسم انتاج المجتمع بالطابع الرومانتيكي .

٢ — عرفنا أن أفعال الانسان ترجع الى الرواسب وأفعال الانسان نوعان :

(ا) أفعال خالصة غير مصحوبة بمشتقات وهي الأفعال المنطقية التي سبق أن أتينا على وصفها .

(ب) أفعال مصحوبة بمشتقات وهي الأفعال غير المنطقية التي سبق الاشارة اليها .

٣ – والمشتقات – وهى الأقوال الشائعة والمعتقدات التى يصاحب كل مجموعة منها راسباً معيناً ، وهى كما رأينا تتغير فى الزمان والمكان ، ولهذا كانت قليلة الأهمية من وجهة النظر العلمية . فالشيوعى لا يختلف عن المتدين فى الرأى ، وكذلك المقامر فى سلوكه لا يختلف عن المتزمت فى زهده ، فالأساس " الراسبى " عندهم جميعاً واحد . أما سلوكهم الظاهر فيرجع الى المشتقات التى تتغير بتغير الأساس الحضارى .

٤ – ليس من شأن الرواسب الاتفاق بعضها مع البعض الآخر ، فهى على العكس يناقض بعضها بعضاً ، ولهذا كانت أفعال الانسان وتبريراته لهذه الأفعال متناقضة تماماً . فكل راسب يقتضى نوعاً معيناً من السلوك يخالف النوع الذى يترتب على راسب آخر ... وهكذا كانت الطبيعة الانسانية لا منطقية متناقضة مع نفسها .

٥ – ولما كانت الآراء الشائعة مثل الديمقراطية والحرية والمساواة والشيوعية والتضامن وكثير من آراء أوجست كومت وهربرت سبنسر من باب المشتقات المتغيرة المتقلبة ، فهى لا تمت الى العلم بصلة . فهذه الآراء وما شابهها مهما اختلفت فى الصياغة أو الموضوع ترجع دائماً الى رواسب موجودة منذ القدم ، وما هذه الآراء المختلفة الا صوراً مغلوطة من الآراء القديمة التى بليت .

٦ – ولكن ليس معنى رفض باريتو لمثل هذه الآراء التى يزخر بها تاريخ الفكر الانسانى ، أنه يغض من شأنها أو أنه يعتبرها من سقط القول . لكنه يرفضها من وجهة النظر العلمية . أما من حيث نفعها للمجتمع ودورها البالغ فى الحياة الاجتماعية فأمر لا ينكره ، وانما أراد بهذا الهجوم العنيف أن يصفى موقف العلم من هذه الأمور ويحدد بطريقة علمية الفرق بين ما هو علم وبين ما هو نافع .

٧ – وليست مجموعة الرواسب التى سبق الاشارة اليها على درجة واحدة من الأهمية . فأهمها اطلاقاً فى رأى باريتو الرواسب التى تعبر عن الترتيب والتركيب ، والرواسب التى تعبر عن الاتجاه الى "المحافظة" .

(ا) فالرواسب الأولى ينتج عنها نزعة يمكن وصفها بالابتكار والتحرر ، ومن شأنها أن تدفع الى التفكير والقيام بالمشاريع الجديدة وتهيئ الفرصة للاختراع .

(ب) والرواسب الثانية ينتج عنها نزعة تتصف بالجمود وضيق الأفق والمحافظة على ما هو موجود . وهى بذلك تفضى الى قتل النبوغ ووأد الاختراع .

وتتعاقب النزعتان فى المجتمع الواحد وتؤدى كل واحدة منها الى نوع متميز من النظام الاجتماعى يتفق مع طبيعة كل منهما .

من هذا نرى أن باريتو كماركس لم يعط أهمية كبرى للمشتقات فهى فى نظرهما خاضعة للراسب الذى هو الأصل فيها ، ولا أدل على ذلك من المثل الذى ضربه باريتو فى أن المتدين الذى لا يتسامح فى عقيدته الدينية لا يتخلف فى كثير عن الشيوعى الذى يهاجم التعصب الدينى ؛ فكل هذه المظاهر الخارجية لسلوكهما ترجع الى راسب واحد . هو رغبة كل منهما فرض طريقة معينة للفكر ونوع معين من السلوك على الناس ، وكذلك الفاسد الذى يبرر سلوكه الجنسى تبريراً منحرفاً لا يختلف فى كثير عن الزاهد الذى يحتقر الجنس فكل منهما يصدر فى سلوكه عن راسب واحد وهو الراسب الجنسى .

فأفعال الانسان اذن لا تتفق مع المنطق الا بعض الأفعال الخاصة كالأبحاث العلمية وبعض مظاهر السلوك الطبيعية حيث يتفق ما فى الذهن مع ما هو فى الواقع . أما نقد باريتو للكثير من المعتقدات أو الأفكار فلأنه يرى أن كل فعل أو فكرة لا تخضع لمنطق التجريب فهى غير علمية على الاطلاق ، وليست مثل هذه المعتقدات الا وسائل لتحويل اتجاهات الناس ، وهو لهذا السبب يعترف بأهمية الصحافة والدعاية وغيرها من وسائل النشر السريعة .

الاقتصادى معنى ان العامل الاقتصادى هو الاصل فيها ، الى حد يقول أن التوازن الاجتماعى لا يمكن أن يفهم الا فى ضوء العامل الاقتصادى وغيره من العوامل المؤثرة فى الظواهر الاجتماعية ، فالحقيقة لابد أن ينظر اليها

نقـــد :

تعرض باريتو للنقد الشديد من جراء فكرته عن الأفعال المنطقية وغير المنطقية وخاصة لفكرته عن الرواسب والمشتقات . والحق أن أى باحث

من كل جانب حتى تنكشف جميع نواحيها ليكون وصفها من الدقة بحيث يمكننا أن نفسر وأن نتنبأ فى ضوء معرفة ثابتة لا تتغير بين الحين والحين لازدياد أهمية عامل من العوامل المؤثرة أغفلناه زمناً لأنه كان غير معروف أو غير ظاهر الأثر ، ثم يأتى زمن آخر يبدو فيه أثره واضحاً فنبدأ الدور من أوله ، وهكذا لا يتسنى لعلم الاجتماع أن يقوم على أسس ثابتة . فالمصالح الاقتصادية اذن عوامل فعالة فى كل مجتمع تؤثر فى الظواهر الاجتماعية ، ولكنها تعمل متآزرة مع العوامل الأخرى ولا يصح لنا أن نعطيها أولوية أو أهمية أكثر من حقيقتها .

ويبدو أن باريتو حين كان ينقد ماركس كان متأثراً بالهيكل العام الذى وضعه لما ينبغى أن يكون عليه البحث فى العلم وفى علم الاجتماع خاصة ، وكان تأثره أكبر بعد تجربته فى الدراسات الاقتصادية التى مثل لنقصها وعجزها فى الوصول الى الحقيقة وما ضربه من أمثلة لهذا النقص مثل قانون العرض والطلب الذى قال عنه ، أنه يكون صحيحاً فى ظروف مثالية ولكنه قانون غير واقعى لأن العرض والطلب فى الواقع يتأثر بعوامل أخرى لم تكن فى حسبان واضع هذا القانون . ومع ذلك فقد وقع باريتو فى الغلطة التى زعم أن ماركس وقع فيها وظل يتعقب دراسة الرواسب وتحلل الأفعال الانسانية ويردها الى مجموعات معينة من الرواسب ، حتى وصل الى القول بأن الرواسب هى الأصل فى الفعل الانسانى ، والعقل الانسانى لا يكمل الا فى مجتمع ، فكأنه قال أن الرواسب هى الأصل أو العامل المؤثر الأهم فى تكييف الظواهر الاجتماعية ، واذا كان قد تعرض لعوامل أخرى ، فانه لم يعطها الأهمية التى أعطاها للرواسب .

(٨) اللاتجانس الاجتماعى :

وثانى العوامل التى درسها باريتو بعد الرواسب ، ووجد أنها تؤثر بدورها فى النظام الاجتماعى هى "فكرة اللاتجانس الاجتماعى" وهو فى هذا الصدد لا يزال يهاجم نظريات كارلس ماركس ، فيقول أنه مهما أدعى البعض ونادى بالمساواة والحرية والديمقراطية فان ذلك لن يخفى حقيقة قائمة

ثابتة ، وهى أن الأفراد جد مختلفين يختلفون من حيث الجسم ويختلفون من حيث قدراتهم العقلية والخلقية ، وهذه الحقيقة عنصر دائم فى المجتمع وعامل يعمل دائماً على تقسيم المجتمع الى طبقات ويعمل أيضاً على تدعيم اللامساواة الاجتماعية .

ويهاجم باريتو بمنتهى المرارة فكرة الديمقراطية بمختلف معانيها ومختلف تطبيقاتها ، ويهاجم نظريات المساواة قائلا "لن يوجد هناك نظام تكون فيه مساواة لأن الناس بطبيعتهم غير متساويين ، ولكن الناس يخدعهم قول معسول أو كلام مشهور" فاللامساواة الاجتماعية واللاتجانس الاجتماعى والتقسيم الطبقى للمجتمع أمور دائمة وحقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ويبدو أن باريتو فى دفاعه الحار عن فكرته هذه أشتط كثيراً وخرج على المنهج المنطقى التجريبى الذى نادى به وأدخل الى حد كبير فى رأيه هذا أمور شخصية . فالباحث فى علم الاجتماع لا يتعرض مطلقاً لصدق النظريات الفلسفية أو كذبها ولا يبحث فى طبائع الناس النفسية من حيث هم أفراد بل يهتم بالنظر فى النظم والظواهر العامة فسواء كان الناس متساوين أو غير متساوين متجانسين أو غير متجانسين فهذا أمر لا يهم البحث الاجتماعى وانما يهتم بالأفراد لانتمائهم الى مجتمع معين تسوده نظم معينه يتعين على الباحث تسجيلها واكتشاف العوامل المؤثرة فى تركيبها وتغيرها .

ومن ناحية أخرى نجد أن باريتو كما هاجم ماركس فى تفسيره المادى للتاريخ هاجمه فى نظريته المرتبة على مبادئه الأخرى فى قيام مجتمع لا طبقى ، فهاجم الفكرة المجردة دون أن ينظر الى الواقع . فماركس لم يزعم أن المجتمع اللاطبقى مجتمع يتساوى فيه الأفراد من حيث الجسم أو القدرة العقلية أو الخلقية ، ولكنه أراد مجتمعاً لا طبقياً من الوجهة الاقتصادية تتهيأ للجميع فيه فرص الحياة المستقرة ولا ينزلون مع ذلك فى حياتهم الاقتصادية عن مستوى معين .

هذا الى أن باريتو فى مهاجمته للديمقراطية كان متأثراً بكفاحه الطويل فى الحصول على كرسى الأستاذية فى احد الجامعات دون جدوى ، فقد كان يعتقد أنه أحق من الكثيرين فى هذا الوقت بهذا المنصب لامتيازه وسعة معلوماته ورغبته الملحة فى خدمة العلم ، وكان يمكن أن يظل خارج التعليم الجامعى لولا الفرصة التى أتاحها له أستاذه ولراس .

(و) دورة الخاصة :

فاذا كان المجتمع الطبقى أمراً مقرراً واذا كان اللاتجانس الاجتماعى والخلقى أمراً طبيعياً لا ينبغى مناقشته ، فان المجتمع على هذا النحو لابد أن يكون فى رأى باريتو مجتمعاً مفتوحاً أى يسمح بانتقال الأفراد من طبقة الى أخرى بناء على امتيازهم . ولهذا كانت دورة الخاصة التى وصف بها هذا الانتقال عاملا من عوامل التطور الاجتماعى ومؤثراً قوياً يترك آثاره على النظم والظواهر الاجتماعية بانتظام ، ويشرح باريتو هذا الرأى على النحو الآتى :

اذا كانت اللامساواة واللاتجانس الاجتماعى وانقسام المجتمع الى طبقتين كبيرتين هما :

١ ـ الطبقة العليا .

٢ ـ الطبقة الدنيا أو السفلى .

أمراً لا مفر منه فان هناك انتقالا وحركة دائمة من الأولى الى الثانية ومن الثانية الى الأولى وهكذا . وتتوقف شدة هذه الحركة على ظروف المجتمع والأفراد ، وعلى الأخص على الرواسب التى تخص كل طائفة فى المجتمع .

والحكومة فى رأى باريتو مهما كان شكلها طبقة من الخاصة أو جماعة ارستقراطية ، وهى بسبيل الزوال آجلا أو عاجلا ، وعند ما تزول تفسح المجال لطائفة أخرى من الطبقة الدنيا لتحل محلها ، وهكذا تسير دورة الخاصة

وكل حكومة أرستقراطية تحاول البقاء على دست الحكم أطول مدة ممكنة ، ولذلك تصطنع أساليب كثيرة منها القمع والارهاب والاعتقال والسجن والرشوة والخداع . ويقرر باريتو أن الحكومة التى تصطنع وسائل القمع والأرهاب أدوم وأبقى من الحكومة التى تصطنع المسالمة ، وكل حكومة تسير فى طريق المسالمة وحسن المعاملة ، لا شك أنها تعجل بانهيارها وتحل محلها حكومة تستعمل الأساليب العسكرية والطرق الخشنة فى ادارة الحكم .

من هذا نتبين أن فكرة الطبقات عند باريتو فكرة بدائية ، فقد تبين من البحث الاجتماعى أن انقسام المجتمع الى طبقات أمر ليس بالسهولة التى تصورها ، وانما تنقسم المجتمعات الى طبقات عدة وعلى أسس كثيرة منها الطبقات الاقتصادية والمهنية والثقافية وهكذا ، ولم يعد للتقسيم الثنائى أو الثلاثى للمجتمع أى أهمية علمية .

وقد وضح من تحليل باريتو لدورة الخاصة وبيانه لتعاقب الحكومات ووسائل ادارتها للحكم تفضيله التام للنظام الارستقراطى (أو الديكتاتورى بمعنى أصح) وهذا يتفق مع رأيه القائل بأن الديمقراطية هراء وفكرتها عواء اذاعه الضعفاء .

وهكذا فليس غريباً أن يعد باريتو ماركس البورجوازية ونبى الفاشستية كما وصفه كتاب الغرب .

سابعا — التغير الاجتماعى

كان لابد على باريتو أن ينهى كتابه بالبحث فى أسباب التغير الاجتماعى ، والتغير هذا فى رأيه ليس من البساطة بحيث يمكن وصفه أو تعيين عوامله فى سهولة ، ومع ذلك قرر أن الرواسب والمصالح الاقتصادية من بين العوامل التى درسها ، وأتينا على شرحها فيما سبق ، هى الأساس الأول للتغير الاجتماعى . ويعتقد جنزبرج Ginsberg أن من أهم ما عمله باريتو هو بحثه فى التغير الاجتماعى . والعوامل التى تؤدى اليه . فالنظام الاجتماعى يتكون

من العناصر التى سبقت الاشارة اليها والتى تختلف فى طريقة توزيعها سواء فى المجال الفردى أو الجمعى ، ومهما كانت درجة التوزيع فثمة مجموعة معينة من هذه العوامل يكون لها الغلبة فى وقت على مجموعة أخرى الأمر الذى يدفع بالحركة والتغير فى اتجاه معين معروف ، ولا تلبث هذه الحركة التغيرية أن تقابلها حركة أخرى مضادة فتكون النتيجة أن التغير يتم فى شكل دائرى فى طبيعته ولا يجرى فى خطوط مستقيمة على الاطلاق .

أما الخلاف فى مقدار توزع هذه العناصر فينحصر فى طبقتين . الطبقة الحاكمة والجماهير فبينما تحوز الطبقة الأولى العناصر التى من شأنها أن تقيم المشاريع الجديدة ، وتهدف الى التجديد والابتكار تجنح الطبقة الأخيرة نتيجة لحظها من هذه العناصر الى الخمول والمحافظة والنفور من كل جديد ، اذن ليس عندنا من الرواسب الفعالة غير مجموعتين ، الرواسب التى تدفع بصاحبها الى التجديد والاختراع ، والرواسب التى تدفع بصاحبها الى الخمول والجمود. وعلى درجة امتزاج هاتين المجموعتين يتوقف شكل النظام الاجتماعى .

ففى المجال السياسى اذا كانت المجموعة الأولى أكبر من الثانية فى الطبقة الحاكمة كان لدينا حكومات تعتمد على القوة البدنية والعواطف الدينية . واذا كان الأمر على العكس تكون لدينا حكومات تعتمد على الذكاء والدهاء ومخاطبة عواطف الجماهير ، ولا تظل الحالة على وتيرة واحدة ولكن تحدث باستمرار حركات مضادة من الطرف الآخر ينتج عنها تذبذبات متفرقة فى الطول والقصر ، ومع ذلك ليس التذبذب فى طبيعة الطبقة الحاكمة هو وحده سبب التغير الاجتماعى . فما لا شك فيه أن للعوامل الاقتصادية والفكرية والاجتماعية آثار لا تنكر فى هذا السبيل .

وبعد ... فعلى الرغم من اعتراف باريتو بأهمية العوامل الاقتصادية وغيرها فى التغير الاجتماعى ، الا أنه لم يوفها حقها من الدراسة ، بل اقتصر على دراسة أسباب هذا التغير فى ضوء دراسته للرواسب ، وكان النظام السياسى هو المركز الذى وجه اليه النظر لتبين عوامل التغير وطريقة عملها . ويبدو أن باريتو كان ينغمس فى تأييد فكرته عن أهمية الرواسب ودورها

الخطير فى المجتمع ، ولا يلبث أن يفيق الى أصول المنهج المنطقى التجريبى الذى نادى به ، فيحشر العوامل الأخرى حشراً ويأتى عليها فى سرعة ، ولكنه فى الحقيقة كان يؤمن ايماناً تاماً بأن الرواسب هى المسؤولة عن طبيعة المجتمع وشكل النظام الاجتماعى وطريقة التغير الذى يلحقه .

أما فكرته عن التغير الاجتماعى الدورى ، فهذه فكرة قديمة وان كان قد لحقها بعض التعديل على يديه ، فالتاريخ لا يعيد نفسه بالصورة التى كان عليها ، ولكنه يقترب من حيث الظروف والمظاهر فقط . فالتقدم العلمى واتساع رقعة العالم وتكاثر السكان وما سببه من تطور اجتماعى عميق فى جميع بلاد العالم لا يؤيد فكرة القائلين بالتغير الدورى ، وانما يدعو الى مزيد من البحث فى تحرى العوامل الحقيقية التى لها من القوة ما تحدث بها آثاراً واضحة على البناء الاجتماعى للمجتمعات . وقد تقدمت الدراسات التى أجريت حول التغير الاجتماعى وأسبابه ، ولعل خير مثل على ذلك الأبحاث التى تجرى على المجتمعات البدائية التى تعتبر خير معمل لتحرى صدق النظريات التى تسن فى هذا الميدان .

خاتمة :

الذى لا شك فيه أن نظريات باريتو فى علم الاجتماع فيها من الاصالة ومن الجدة ما لفت اليه النظر واستحق كتابه مزيد الاهتمام والدراسة فى أوربا وأمريكا ومن نظرياته التى صادفت اتفاقا بين علماء الاجتماع اليوم :

١ — نظريته فى علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية .

٢ — نظريته عن تآزر الظواهر الاجتماعية وضرورة دراستها كميا ووظيفيا

٣ — اصراره على دراسة العناصر الدائمة فى كل نظام اجتماعى واهماله المسائل العارضة او الوقتية .

وعلى الرغم من أن كتاب باريتو طويل فى غير ضرورة ومنظم بطريقة غير واضحة مما قد يتعذر معه بحثه ودراسته وغموضه فى كثير من مواضعه

الا أنه من غير شك عمل خالد . خالد للمنهج العلمى الذى اقترحه وخالد أيضا للمادة الغزيرة التى أوردها فيه والتى اختلفت ازاءها وجهات النظر .

ومما يؤخذ على باريتو ما يلى :

١ — على الرغم من أن باريتو أدعى أنه يسير على المنهج العلمى والمنطق التجريبى فمن الواضح أن القواعد التى وصل اليها صنعت ولم تكن نتيجة للبحث والدرس .

٢ — ودراسات باريتو للرواسب والمشتقات لم تضف الا قليلا لما هو معروف بطريقة منظمة فى علم النفس الحديث .

٣ — لم يكن موضوعيا فى أغلب ابحاثه عن الديمقراطية وتنظيم المجتمع فقد تحامل على الديمقراطية واصلاها من نقده نارا وأعلى من شأن الأرستقراطية واعتبرها نظاما طبيعيا دون أن يحاول اثبات ذلك بطريقة علمية .

ويرى بانتزيو Panuzio أنه على الرغم من أن باريتو يعد مؤسس علم الاجتماع الرياضى إلا أن عمله الكبير ليس علم اجتماع فى حقيقة الأمر فكما حاول سبنسر أن يشبه المجتمع الانسانى بالتركيب البيولوجى كذلك حاول باريتو أن يخضع الظواهر الاجتماعية الى نوع من الطبيعة الاجتماعية ويستخرج من ذلك قانون التوازن الاجتماعى . فعمله الضخم لا يتناول الظواهر الاجتماعية بل يتناول التوازن بين الأمم والمراحل التاريخية والطبقات ولو أنصفنا الحكم على باريتو لكان لنا ان نسمى كتابه " فلسفة المجتمع " أو الاخلاق الاجتماعية أو فلسفة التاريخ وليس علم الاجتماع .

REFERENCES

PARETO, V; *The mind and Society* (IV Vols). Harcourt, New York, 1935.

BOUTHOUL; *Traité de Sociologie*; Payot, Paris, 1946.

GURVITCH (ed.); *20th Century Sociology*; The Philos. Library, New York, 1945.

PARSONS, T.; *The Structure of Social Action*; McGraw-Hill, New York, 1937.

RICE (ed.); *Methods in Social Science*; University of Chicago Press. 1931.
(Analysis 7. The Sociological Methods of Pareto, by M. Handman).

GINSBERG, M.; *Reason and Unreason in Society*; Longmans, London. 1948

HOUSE, F.; *Development of Sociology*; New York, 1936.

SOROKIN, P.; *Contemporary Sociological theories*. Harper Press. Nwe York, 1928.

SOROKIN, P.; *Society, Culture and Personality*; Harper Press, New York, 1947.

BARNES (ed.); *An Introduction to the history of Sociology*.